

## في الذكرى الثانية لأحداث 11 سبتمبر: أمريكا ترتدي قناع الشرطي العالمي

11-9-2003

وقد ساهمت فكرة "الحرب علي الإرهاب" بشكل كبير في تدشين أدوات جديدة للحركة الخارجية للولايات المتحدة تتناسب والأهداف الأمريكية الجديدة في، وتمثل ذلك في مثلث الاستراتيجيات الثلاث وهي استراتيجية الحرب الوقائية والتوجه المنفرد وتغيير الأحلاف، وقد عبرت حالة العراق خير تعبير عن هذا المثلث.

**بقلم خليل العناني**

بعد مرور عامين علي وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر يبدو أن الولايات المتحدة قد بدأت تدخل في حقبة جديدة من تاريخها السياسي والفكري قوامها الاستبداد والتحكم العالمي، ليس لانتهاجها لسياسات متعجرفة مع مختلف شعوب الأرض فحسب، ولكن أيضاً لأنها قضت علي كل النماذج والقيم التي طالما تغني بها الأمريكيون باعتبارهم مهد القيم العالمية. وعلي الرغم من أن الولايات المتحدة قد حددت لنفسها هدفاً محورياً غداة وقوع أحداث سبتمبر تمثل في "مكافحة الإرهاب الدولي"، إلا أنها في الواقع قد استخدمت هذا الهدف لإخفاء أهداف أخرى كونية أبعد ما تكون عن مكافحة الإرهاب الدولي. بل لا نبالغ إذا قلنا أن الولايات المتحدة ذاتها قد أصبحت أكثر من يمارس هذا الإرهاب وما زالت أحداث حربي أفغانستان وفلسطين ماثلة في أذهان الجميع.

بيد أن فكرة الحرب علي الإرهاب لن تحقق الكثير مما يصبو إليه العديد من أصحاب التوجه الفردي في الولايات المتحدة ليس لكونها تستند علي أساس هش وغير مقنع فحسب، بل لعدم واقعيتها عملياً رغم ثبات خطر الإرهاب في حد ذاته. فالولايات المتحدة مهما بلغت قوتها وقدراتها فهي في النهاية تعيش في عالم تحكمه قواعد وأساسيات للتعامل تقوم في جزء كبير منها علي التوافق الدولي أكثر منه الإكراه والعقاب، وبافتراض حدوث ما تصبو إليه الولايات المتحدة فإنه لن يدوم لفترة طويلة ليس انطلاقاً من ظهور قوة منافسة لها بقدر ما هو مرتبط بقدرة الولايات المتحدة ذاتها علي الاستمرار ومواصلة هذا النهج المستهجن من بقية دول العالم. فضلاً عن ارتفاع تكلفة هذه الفكرة سياسياً واقتصادياً بالنسبة للولايات المتحدة وبكفي في ذلك حساب ما تغمده واشنطن سواء في تدشين الأحلاف الجديدة مثل ما حدث مع باكستان وبعض جمهوريات آسيا الوسطى، فضلاً عن دول أوروبا الشرقية، أو تدعيم بعض الأحلاف القديمة مثل الأردن ومصر وغيرها من الدول الصديقة للولايات المتحدة.

وقد ساهمت فكرة "الحرب علي الإرهاب" بشكل كبير في تدشين أدوات جديدة للحركة الخارجية للولايات المتحدة تتناسب والأهداف الأمريكية الجديدة في، وتمثل ذلك

في مثلث الاستراتيجيات الثلاث وهي استراتيجية الحرب الوقائية والتوجه المنفرد وتغيير الأحلاف، وقد عبرت حالة العراق خير تعبير عن هذا المثلث.

ويشير الضلع الأول والذي يمثل قاعدة هذا المثلث إلى "استراتيجية الأمن القومي الأمريكي" والتي ينظر إليها البعض باعتبارها دستور أمريكا الجديد، واستبقتها الإدارة الحالية بتقسيم العالم لشطري الخير والشر، وأن هذه الاستراتيجية قد دُشنت لمعاقبة هذا الشطر الأخير والذي يضم في جعبته كل من يجرأ علي التصريح بمعارضة الولايات المتحدة أو تصدير أي فكر يروج لذلك، ولذا فقد ضمت القائمة كل من يخالف واشنطن أيديولوجياً أو يهمس بذلك سراً، ومن هذه الدول العراق وإيران وكوريا الشمالية والصين وكوبا وليبيا وسوريا ولاحقاً السعودية والسودان وغيرها. وقد لا يقتصر الأمر علي بلدان الشرق الأوسط بل قد يتعداه لبعض القوي العالمية النسبية مثل فرنسا وألمانيا وروسيا وإن اختلف أسلوب التعامل في الحالتين. وقد تم اختبار هذه الاستراتيجية في الحرب علي العراق وأثبتت نجاحها إلي حد كبير، وإن كان هذا يعود في جزء كبير منه إلي طبيعة الحالة العراقية أكثر من ارتباطه بواقعية الاستراتيجية ذاتها.

ويعبر الضلع الثاني في مثلث الاستراتيجيات الأمريكية الجديدة عن حقيقة الحلم الأمريكي ويصب في صلب الرغبة الأمريكية التي طال انتظارها وحالت ظروف عديدة دون تحقيقها ممثلة في إعلان الهيمنة الأمريكية علي الكون وإعلاء الكلمة الأمريكية فوق الجميع. وبعد هذا التوجه المنفرد بمثابة الإعلان العالمي عن عدم الوقوف في وجه القطار الأمريكي حتي وإن خرج عن قضبان الشرعية الدولية، ليس لقوة بطش هذا القطار فحسب، ولكن لعدم وجود قوة فاعلة قد تردع حركته وتبطئ منها سواء كانت قوة جماعية كالأمم المتحدة أو قوة فردية أخرى. وقد كشف الصراع في مجلس الأمن إبان الاستعداد الأمريكي لإعلان الحرب علي العراق عن هذه الحقيقة، وعبرت الحرب عن هذا المنحي المنفرد. وقد أثبتت هذه الاستراتيجية فعاليتها بشكل عملي خلال الحرب، وإن تراجعت مؤخراً بشكل ملحوظ يمكن الاستدلال عليه من رغبة واشنطن في توسيع دور الأمم المتحدة في العراق تفادياً للاحتتمالات الفشل هناك.

أما الضلع الثالث للمثلث فمثلته استراتيجية تغيير الأحلاف ويقصد بها إعادة فك وتركيب القوي الصديقة للولايات المتحدة تمثيلاً مع فكرة الحرب علي الإرهاب واتساقاً مع استراتيجية الحرب الوقائية. ولذا فلم يكن مستغرباً أن تصبح باكستان حليفاً هاماً في الحرب علي أفغانستان بعد أن كانت في قائمة الدول المحظورة أمريكياً، وكذلك وجدت روسيا لنفسها دوراً جديداً في قلب الاستراتيجية الأمريكية الجديدة وتبدلت علاقات البلدين خلال أقل من عامين بسرعة تفوق أضعاف سرعة علاقتهما قبل عام 1990، كما دخلت دول جديدة من أوروبا الشرقية في زمرة الحلفاء الجدد للولايات المتحدة مثل بولنده ورومانيا والتشيك وغيرها. وعلي الجانب الآخر تبدلت أدوار وأشكال الحلفاء القدامي، فتبدل دور السعودية لتصبح الخصومة هي الطابع المميز لعلاقات البلدين، بعد أن كانت علاقة تحالف علي مدار أكثر من نصف قرن، وإن ردد مسئولو البلدين عكس ذلك، بدأت دول جديدة في حجز مقعد دائم لها في علاقة التحالف مع واشنطن مثل قطر والأردن. وكذلك الأمر علي دول غرب أوروبا حيث ابتعدت دول عن صفة الحليف لواشنطن مثل ألمانيا وفرنسا وتركيا بشكل مؤقت. ولن يقف الأمر عند هذا الحد بل قد

يمتد ليشمل آفاقاً جديدة ويضم دولاً أخرى طالما يصب الأمر في النهاية في تحقيق المطامح الأمريكية.

ولعل التساؤل المهم في هذه المرحلة هو هل فكرة الحرب علي الإرهاب مجرد نبت يميني أم تعبير عن وجهة نظر الشعب الأمريكي بشكل عام؟ وتساهم الإجابة علي هذا التساؤل في إمكانية تقييم وتوقع مدي استمرارية هذه الفكرة والاستراتيجيات المصاحبة لها من عدمه. وتدل الخبرة التاريخية الأمريكية علي أن هناك انفصال شبه عميق بين توجهات السياسة ورؤية الشعب الأمريكي بشكل عام. وهو ما يعني أنه قد لا يكون هناك توافق بين الشعب الأمريكي وقادته حول هذه الفكرة ما قد يجعلنا نستنج أن الفكرة لن تعيش أكثر من عمر الإدارة الحالية، وسرعان ما ستزول مع قدوم وافد جديد للبيت الأبيض، وذلك دون إغفال التأثير الكبير لأحداث الحادي عشر من سبتمبر علي توجهات الشعب الأمريكي بشكل عام تجاه العالم الخارجي وتجاه موقف قيادته من قضية الحرب علي الإرهاب.

بيد أن الحقيقة التي لا يمكن لعاقل أن يتجاهلها هي أن فكرة الحرب علي الإرهاب قد أحدثت شرخاً كبيراً في العلاقات الدولية ومفهوم التنظيم الدولي بشكل عام، ليس لاختلاف المجتمع الدولي حول حقيقتها، وإنما للخلاف الشديد حول أساليب معالجتها وكيفية التصدي لها وهو ما يتطلب جهوداً جماعية حثيثة لوضع إطار محدد لهذه الظاهرة والاتفاق علي كيفية مواجهتها.